الآراء الـواردة في الـصفحة تعبر عـن وجـهـات نـظـر كـتـابـهـا ، وقـد لاتـتـفـق بـالـضـرورة مـع وجـهـة نـظـر الـجـريـدة

مـا أسـبـاب بـــروز «الإســـلام الـسـيـاسي» بهـــذه الـقـــوة؟

شاكر النابلسي
امريكا

يقول الشيخ الراحل محمد الغزالي أحد أقطاب الفقه في جماعة الإخوان المسلمين: «إن مأساة الإسلام لم تجئ من كثرة حكوماته، قدر ما جاءت من تفاهة الحاكمين وندرة مواهبهم، وسقوط منصب الخلافة، بين أناس لا يصلحون لإدارة قرية صغيرة أو شركة محدودة» («مئة سؤال عن الإسلام»، ص ٢٨٢).
فإذا كان الحال كذلك، فما الأسباب إذن، التي أدت إلى ارتفاع أصوات الجماعات الإسلامية عالياً، بالمناداة بربط الدين بالدولة، في القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين؟
وما الأسباب كذلك، التي أدَّت إلى علو هذه الأصوات علواً كبيراً في النصف الثاني من القرن العشرين خاصة، حيث لم نشهد مثيلاً له، منذ صراع العلويين مع الأمويين، في صدر الإسلام؟

الاقتصاد المتردي

هناك أسباب مختلفة لذلك، منها اقتران تكوين ونشوء الجماعات الإسلامية بالأوضاع الاقتصادية المتردية في العالم العربي. فقد تكونت أول جماعة إسلامية في العالم العربي في مصر في عام ١٩٢٨، وهي «جماعة الإخوان المسلمين»، على إثر ركود اقتصادي، ثم انهيار اقتصادي عالمي مُروّع، في عام ١٩٢٩. وجاءت هذه الجماعة، لتقول للشارع العربي والإسلامي، بأن الإسلام هو الحل، وهو الذي سيُطعم الناس بعد جوع، ويؤمِّنهم بعد خوف.

اضطهاد الجماعات الإسلامية

ومن الأسباب التي أدت إلى بروز الإسلام السياسي، اضطهاد الجماعات الإسلامية من الجمهوريين في العالم العربي، في بداية النصف الثاني من القرن العشرين، متمثلين بالإخوان المسلمين، وصدامهم مع الجمهوريين المصريين. واحتضان الملكيين– سواء من كانوا يُنسبون إلى آل البيت، أو من كانوا يتبنون النهج السلفي الديني – بالمقابل لهذه الجماعات، ودعمهم بالمال، والترحيب بإقامة زعماء الإسلام السياسي الهاربين من ظلم الأنظمة الجمهورية. كما برز تعاطفٌ من الرأي عام العربي مع بعض هذه الجماعات الإسلامية، التي أصابها التنكيل والاضطهاد والتشريد والقتل، على أيدي الجمهوريين الدكتاتوريين، في أنحاء متفرقة من العالم العربي. فقد تم شنق قيادات الإخوان المسلمين بالجملة على يد الجمهوريين في عام ١٩٥٥. كما تم شنق سيِّد قطب في عام ١٩٦٦، وشنق صالح سرية في عام ١٩٧٤، وشنق شكري مصطفى في عام ١٩٧٧، وشنق محمد عبد السلام فرج زعيم تنظيم «الجهاد»، وقتل الآلاف من الإخوان المسلمين في سوريا، في حوادث حلب وحماة في عام ١٩٨٢.

هزيمة 1967

ومن الأسباب لظهور الإسلام السياسي بقوة، وقوع هزيمة عام ١٩٦٧، وما تركته من آثار سياسية، واجتماعية، واقتصادية سيئة، ونهاية المشروع الناصري الاشتراكي. كما يردُّ بعض الباحثين، ازدهار الحركات الإسلامية، في النصف الثاني من القرن العشرين، إلى سبب جوهري أساسي، وهو السبب الاجتماعي. ويدلل على ذلك بقوله «إن الغالبية العظمى للجماعات الإسلامية من أبناء الطبقات الفقيرة، الذين يعيشون في الأحياء العشوائية، ومناطق الإسكان الهامشية، جنباً إلى جنب مع سكان المناطق الراقية. وهم من الذين تركوا مدارسهم أو أكملوها بمستويات منخفضة. ولم يجدوا عملاً غير العمل الديني السياسي الذي يعيد لهم شيئاً مما افتقدوه من الهيبة والقيمة الاجتماعية». ويكاد الأمر ينجلي عن ارتداء الصراع الطبقي لزي ديني. ومن ناحية أخرى، فإن» استعمال الدين كأداة تحريض لا يمكن فصله عن مصالح وحاجات ومواقع الطبقات الوسطى التي تزدهر ضمنها هذه الحركات. وليس مصادفة أن الجماعات الدينية تستمد معظم قوتها من شرائح التجار الصغار، ومتوسطي الحال والحرفيين، والطلبة المهددين بالبطالة، والمهنيين، الذين لم تستقر أحوالهم الاقتصادية، والمثقفين الذين تغلّبت طموحاتهم على واقعهم». (أنظر: خليل عبد الكريم، «جذور العنف لدى الجماعات الإسلامية»، ص١١١. وانظر: سيّد القمني، «الدولة تعيد إنتاج لغة أعدائها»، موقع «البوابة» الإليكتروني، ٢٠٠٠/٩/١٨. وانظر: حليم بركات، «الدين والسلطة في المجتمع العربي المعاصر»، ص٨٤).
ومن ناحية أخرى، فإن من أسباب نشوء وارتقاء الجماعات الإسلامية في النصف الثاني من القرن العشرين، هو أن الطلبة، والفلاحين، والعمال، لم يدخل فكرهم الانحراف الفكري، ولم تمزقهم التيارات الفلسفية المغرضة، وكانوا على فطرتهم، يعتزون بالدين، وقداسته، ومُثله. كما أن مصالح هذه الجماهير لم تصطدم مع تعاليم الدين. وكان الدين مبشراً بخلاصها من الظلم الاجتماعي والسياسي. ولم تكن هذه الفئات، قد ولغت في مفاتن الغرب وتقاليده، ولم تكن قد استوردت لحياتها وقيمها أنماطاً جديدة من المدنية الغربية.

انتفاضات الجوع

ساعد تفاقم الأزمة الاقتصادية في العالم العربي، كذلك انتفاضات الشوارع العربية بسبب الجوع والفقر، في أنحاء متفرقة من العالم العربي، على انتشار الإسلام السياسي. فكانت أولى هذه الانتفاضات في مصر في عام ١٩٧٧، ثم في السودان في عام ١٩٨٢، ثم في تونس والمغرب في عام ١٩٨٤، ثم في الأردن في عام ١٩٨٩. وبموجب إحصائيات عام ١٩٩٣ بلغت نسبة الأسر العربية التي تعيش تحت خط الفقر ٣٤ بالمئة. وترتفع هذه النسبة في بعض الدولة العربية إلى ستين بالمئة. وأن جُلَّ سكان العالم العربي – باستثناء دول النفط – لا يحصلون إلا على دولار أو اثنين في اليوم، وهو الحد الأدنى لكفاف الإنسان، حسب مقاييس البنك الدولي. وكان الجواب عن كل هذه الانتفاضات وتلك الأزمات، أن الحل في الإسلام، وفي التكافل الإسلامي، والاقتصاد الإسلامي. مما دفع بعض الجماعات الإسلامية إلى إنشاء شركات توظيف الأموال الإسلامية في مصر على وجه الخصوص، ودعم إنشاء البنوك الإسلامية، في أنحاء متفرقة من العالم العربي، كبديل إسلامي عن الاقتصاد الاشتراكي، الذي خرّب البيت العربي، كما قالت أدبيات الجماعات الإسلامية في ذلك الوقت. وقد تاجرت شركات توظيف الأموال بالإسلام ، وبمباركة من بعض كبار رجال الدين. وكانت متاجرتها بالدين، تتجلى بتسمية هذه الشركات تسميات مستوحاة من الدين مثل: البدر، الهدى، الهلال، النور، الرضا.. الخ. وطلاء مقارها باللون الأخضر. وقولها إنها تدير الأموال في مجالات المضاربة والمشاركة الإسلامية. وقد أفلست هذه الشركات جميعها، بعد أن أكلت أموال الفقراء وذوي الدخل المحدود، وزُجَّ بعض أصحابها في السجون، والبعض الآخر هرب محملاً بالملايين من ودائع الدراويش والبسطاء، كما تم مع صاحب «شركة الهلال» الذي هرب إلى أمريكا، ومعه مئة مليون جنيه من ودائع المستثمرين والمدخرين، وصاحب «شركة الصفا»، وأصحاب أربع شركات أخرى في الإسكندرية. وتم ذلك بفضل الفساد الحكومي المستشري، والقادر على «تمرير الإبل من ثقوب الإبر» على حدِّ تعبير الباحث المصري محمد دويدار (أنظر: «شركات توظيف الأموال»، ص ١٤١).

التغريب الجمهوري

ومن الأسباب التي ساعدت على انتشار الإسلام السياسي، اتجاه الجمهوريين في عهد عبد الناصر، وعهد السادات، وحافظ الأسد، وغيرهم إلى التغريب. فقد «زادت حركة التغريب حدةً وشذوذاً في السبعينيات. وكان عبد الناصر يحمل إعجاباً دفيناً بالانموذج الغربي، لم تسمح له معاركه السياسية بالتصريح عنه. وعلى رأس هذه المعارك كانت القضية الفلسطينية. ولنا أن نتصوّر، كيف لو أن إسرائيل لم تنشأ في فلسطين ولم يكن هناك شيء اسمه «القضية الفلسطينية».. فما هو حال العالم العربي الآن؟ وهذا التصور يحتاج إلى أدوات منهاج علمي يُطلق عليه «منهاج الواقع المضاد Counter factual ". كما يحتاج إلى عدة سيناريوهات اقتصادية، وثقافية، وسياسية، واجتماعية.
وفي الوقت الذي كان فيه الشعور الديني يزداد قوةً، بفعل عوامل متعددة، اصطدم هذا الشعور بما نراه من تسارع الاتجاه نحو التغريب، الذي يؤذي الشعور الديني، ويتحداه. فكان الموقف السياسي الليبرالي العربي تجاه الغرب، يتسمُ بالإعجاب والكراهية في الوقت نفسه: الإعجاب بالتقدم الحضاري، والكراهية للاستعمار.

البترول الخليجي

إن ظهور البترول في الخليج العربي، في النصف الثاني من القرن العشرين، وانتشار أثره الاستهلاكي بعد عام ١٩٧٤، مما أوحى للعامة بأن الثروة تهبط من السماء، حيث الدولة الإسلامية متمثلة ببعض دول الخليج، من أسباب انتشار الإسلام السياسي. وقيل أن بركة تطبيق الحدود والعقوبات الإسلامية، هي التي جاءت بهذه الثروات، وفجّرت الأرض بالخيرات. وقد أدى ظهور البترول، وتدفق الثروة على بلدان الخليج العربي، إلى اتساع الهجرة إلى الخليج بعد عام ١٩٧٤ من الجماعات الإسلامية، واعتبار دول الخليج بلاد التكفير والهجرة، حيث المال والإسلام. واعتبار بعض دول الخليج، المثال الحي على تطبيق الإسلام، الذي جاء بالثروة.

الثورة الخمينية

وكان قيام ونجاح الثورة الإيرانية الإسلامية في عام ١٩٧٩، أثره في بروز الإسلام السياسي، حيث ألقى في روع المنظمات الإسلامية، أن تجربة الثورة الإسلامية الإيرانية، يمكن لها أن تتكرر في بلدان عربية أخرى. وأعقب ذلك اجتياح إسرائيل للبنان في عام ١٩٨٢، وبدء نشاط «حزب الله» بالتصدي للقوات الإسرائيلية على الحدود الجنوبية اللبنانية، مما دفع إلى انسحاب إسرائيل من لبنان في عام ٢٠٠٠، وقيام الانتفاضة الفلسطينية في الأراضي المحتلة بقيادة الجماعات الإسلامية، وعلى رأسها حركة «حماس» .

فشل إعداد جيش قوي

إن فشل الدول العربية مجتمعة، أو منفردة، في إقامة جيش قوي، يستطيع الوقوف في وجه إسرائيل وهزيمتها، برغم العدة البشرية الأكثر للجيوش العربية، وبرغم الحجم المالي الكبير لما يُرصد في ميزانيات الدفاع العربية – مقارنة بميزانية الدفاع الإسرائيلي – كان أحد العوامل التي ساعدت على بروز الإسلام السياسي. وإن بقاء القضية الفلسطينية والصراع العربي– الإسرائيلي يراوح مكانه، منذ نصف قرن من الزمان، من دون أن يتمكن العرب من بناء قوة عربية رادعة تحسم المعركة، ساعد على تقوية تيار الإسلام السياسي. وما أن جاء عام ٢٠٠٠ ، إلا وكان الجيش الإسرائيلي أقوى جيش في منطقة الشرق الأوسط، لا تستطيع الدول العربية، أن تفعل حياله شيئاً، غير عقد المؤتمرات وإصدار بيانات الاحتجاج على القمع الإسرائيلي للفلسطينيين، مما قوّى من ساعد الجماعات الإسلامية داخل الأراضي المحتلة. فأصبح لحركة «حماس»، ولحزب الله في جنوب لبنان، شأن سياسي كبير في الصراع العربي – الإسرائيلي.

الأنظمة الهشَّة

لا شك بأن تحقيق الجماعات الإسلامية في دول عربية مختلفة كالأردن والجزائر لنتائج مفاجئة في الانتخابات التشريعية والبلدية، وفي انتخابات النقابات المهنية والعمالية، كان له الأثر الكبير في ارتفاع أسهم الإسلام السياسي في الشارع العربي. وكان هذا مقابل وجود أنظمة سياسية عَلْمانية عربية هشة، وعدم تحقيق هذه الأنظمة القوة الاجتماعية والفكرية والسياسية لحمايتها، وحماية مكتسباتها. حيث تمّت محاربة القوى السياسية الوطنية النظيفة، وزُجَّ بعض أعضائها في السجون، أو تمَّ طردهم من الحلبة السياسية، أو نفيهم خارج الوطن. بل إن بعض الدول العربية (كما تم في عهد السادات) قامت بالمزايدة مع الجماعات الإسلامية، والتشجيع غير المباشر لهذه الجماعات، نكاية وكيداً لأعداء السلطة من اليساريين. وسيطرت الجماعات الإسلامية في بعض الدول العربية والخليجية خاصة، على التعليم والإعلام. فشُحنت برامج التعليم وبرامج الإعلام بالمواد الدينية، وتمَّ تطهيرها من الأفكار الفلسفية المستوردة. وألغيت الرقابة على البرامج الدينية، والكتب الدينية، وخاصة كتب سيد قُطب والمودودي، وغُضَّ الطرْفَ عن خطباء المساجد، وما يقولون. وقد أفسحت هذه السياسة المجال أمام الجماعات الإسلامية، لكي تملأ الفراغ السياسي الناجم عن تغييب القوى السياسية الأخرى.

لا بدائل واضحة

وكانت شعارات وخطابات الإسلام السياسي جميلة وبرّاقة، تدعو إلى استئصال دولة الجاهلية، وإقامة حكم الله في الأرض. ولكنها كانت من دون مشروع سياسي، أو اقتصادي، أو اجتماعي واضح ومقنع، تقدمه كبديل لما هو قائم. وكانت هذه الشعارات والخطابات، تكتفي– كما قال فرج فوده، في كتابه «الفريضة الغائبة» – بالدعوة إلى إقامة نظام اجتماعي وسياسي حقيقي هي دعوة مقدسة، يجب على كل مسلم ومسلمة السعي إليها. ولكن لا أحد من قيادات هذه الجماعات، كان باستطاعته أن يخبرنا، كيف يمكن إقامة مثل هذا النظام، لأن لا أحد منهم، كان يعلم كيفية ذلك. (أنظر: محمد نور فرحات، «عن التحولات الاجتماعية والأيديولوجيا الإسلامية»، ص١٦٠).

طـــهـــران- بـــغـــداد- واشـنـــطـــن .. الـدبـلـومـاسـيـة الـسـريـعـة

ساطع راجي

لم يكن السفير الامريكي المنتهية مهمته في العراق رايان كروكر دقيقا عندما تحدث عن المفاوضات الثلاثية بين طهران وبغداد وواشنطن حين قال في حوار تلفزيوني «لم نحرز أي نتائج من هذه المفاوضات» كما إن وزير الخارجية الايراني منوشهر متكي لم يكن دقيقا حين قال حول المفاوضات الثلاثية «ان حوارا ايرانيا اميركيا بشأن العراق لم يعد ضروريا بعد التحسن الامني في البلاد..على اساس هذا النوع من المباحثات وفي هذه الظررف الحالية ليس له مكان، الشعب العراقي والحكومة قادران على توفير الامن»، فالمفاوضات عكس ما قاله كروكر ساهمت في تمكين الحكومة العراقية من مواجهة المليشيات في بغداد وفي الجنوب وبالتالي فإنها كانت مثمرة في جانب مهم هو الجانب الامني، كما إن الايرانيين يريدون نقل المفاوضات مع الامريكيين الى مرحلة متقدمة ليكون موضوع التفاوض إقليميا جوهره العراق.
لقد توقفت المفاوضات لأن حاجة الامريكان والايرانيين كانت تتطلب إيقافه عند مرحلة معينة هي مرحلة الانتخابات الرئاسية الامريكية حيث لم ترغب إدارة الرئيس بوش تثبيت المقولة التي تشاع عن هيمنة إيران على العراق بعد أن أسقط الامريكان نظام صدام وإن الايرانيين هم المستفيدون من الحرب التي تخوضها واشنطن في العراق، كما إن الايرانيين لم يرغبوا في منح الحزب الجمهوري دعما في معركته الانتخابية عبر استقرار نهائي وحاسم في العراق بل إن الايرانيين راهنوا بشكل قاطع على وصول أوباما الى البيت الابيض والاحتفاظ ببعض الاوراق حتى ذلك الوقت لإستغلال لهفة اوباما على خفض القوات الامريكية في العراق وربما الانسحاب نهائيا، وجاءت مفاوضات الاتفاقية الامنية بين بغداد وواشنطن لتدفع الايرانيين الى تعزيز القطيعة مع الامريكيين، حتى وصلت الاتفاقية الى صورة «إتفاقية سحب القوات» وهو أمر قريب مما يريده الايرانيون.
لقد تحقق للإيرانيين أمر آخر ساعدهم على نقل الملف العراقي الى مرحلة التفاوض الاقليمي هو أزمة غزة وعودة الاهتمام القوي بالملف الفلسطيني ووضع إسرائيل في المنطقة وأمنها، وظهر الاهتمام الامريكي بالشرق الاوسط بعد تنصيب اوباما مباشرة وتعيين مبعوث أمريكي في الشرق الاوسط.
لا يمكن تجاوز الظهور الدبلوماسي الايراني بقوة في العراق خلال الايام الماضية عبر زيارات متلاحقة لعدد من المسؤولين الايرانيين بدءا من الناطق باسم الخارجية الايرانية قشقوي ثم مستشار المرشد الاعلى للشؤون الخارجية علي أكبر ولايتي والزيارة الطويلة لوزير الخارجية الايراني منوشهر متكي التي شملت عدة محافظات عراقية والتي لم تكن للغرض الذي صرح به متكي فقط حين قال «زيارتنا الى مناطق العراق توجه رسالة مفادها ان جميع انحاء البلاد اصبحت مناطق امنة»، وهناك معلومات صحفية عن زيارة مرتقبة يقوم بها هاشمي رفسنجاني الى العراق قريبا، ولعل جولة متكي والاتفاقيات التي وقعها مع المسؤولين العراقيين تفتح مجال توقع المستقبل الذي ستسير فيه العلاقات الايرانية العراقية الامريكية في عهد أوباما خاصة مع إقتراب موعد الانتخابات الرئاسية الايرانية التي قد تكون مدخلا لنزع فتيل التوتر بإزاحة نجاد وبالتالي تصبح المفاوضات على الملف النووي الايراني أسهل.
واشنطن وبغداد وطهران تعرف إن وضع العراق من الناحية الامنية في السياق الستراتيجي قلق ومحرج فالعراق لن يتمكن بسهولة من تحقيق التوازن مع جيرانه وهو بحاجة الى منظومة أو علاقة أوسع تحميه وقد فشلت الاتفاقية الامنية مع الولايات المتحدة في توفير الغطاء الامني للعراق الذي ما زال جيشه يقوم بدور «قوة داخلية لمكافحة الارهاب» لا أكثر وسيحتاج الى سنين طويلة وأموال طائلة حتى يكون ندا لجيوش المنطقة وإذا قررت الحكومات العراقية القادمة السير في طريق التسلح فإن ذلك سيكون على حساب الاقتصاد العراقي ورفاهية المواطنين كما ستواجه أية سياسة عراقية واسعة للتسلح رفضا أقليميا شديدا.
ومثلما فشلت الاتفاقية الامنية في توفير شراكة عسكرية تضمن أمن العراق فشلت أيضا المساعي الامريكية لضم العراق الى مجلس التعاون الخليجي بسبب رفض دول المجلس، كما إن العراق لا يمكن ضمه الى حلف شمال الاطلسي «الناتو» لعدم توفر شروط الانضمام فيه ولذلك إنطلقت بالونات إختبار عن منظومة أمنية جديدة تضم بعض دول المنطقة والعراق عبر تصريحات لساسة عراقيين، وكانت إيران إسما لافتا في تلك المنظومة.
الدول العربية ليست لديها القدرة ولا الرغبة في القيام بدور في العراق وهي في نفس الوقت تريد عراقا مستقرا بأي ثمن كما إن الايرانيين سيحرصون على أن يتخذ دورهم في العراق ملمسا ناعما وسيبذل الايرانيون كل جهدهم ليكون وجودهم نافعا لمختلف المكونات والاطراف، كما إن القوى العراقية ستعمل بقوة للتغطية على هذا الدور الذي سيختلف عن الدور السوري في لبنان بكونه دورا غير مسلح بل سيعمل من خلال توفير المنافع للساسة وتسويق صورة جميلة عن إيران للشعب العراقي كما تفعل كل سياسة خارجية مؤدلجة لدولة تبحث عن شريك يحتاجها أكثر مما تحتاجه في الصورة المسطحة لكن في العمق سيكون العراق نقطة ضعف إيران المستقبلية وبؤرة لإستنزافها دبلوماسيا وإقتصاديا وربما عسكريا وهو ما تريده واشنطن على المدى البعيد مقابل التنازلات القريبة.

اراء وافكار
Opinions & Ideas
ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١. لا يزيد عدد كلمات المقالة على ٧٠٠ كلمة.
٢. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة ومرفق صورة شخصية له.
٣. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:
Opinions112@ yahoo.com